التعبير عن التهميش في المجتمع التونسي قبيل الثورة

التدوين و«الراب» أنموذجين

آمال قرامي

يتّفق أغلب المفكّرين والمحلّلين السياسيين على أنّ ممارسة الإقصاء وتهميش فئات عديدة من المجتمع وأهمّها الشباب، كانا قادحين بارزين ساهما في اندلاع الثورات والانتفاضات التي شهدها العالم العربيّ سنة 2011. بيد أنّ الدارسين المتخصّصين في تاريخ المهمّشين، وفي علم الاجتماع، وفي علم النفس، وفي الأنتربولوجيا، وغيرها من العلوم الإنسانية يعتبرون أنّه يجب التمييز بين الهامشيين الذين اختاروا أن يكونوا على هامش المركز وأن يعيشوا نمط حياة مختلف عن السائد منتجين بذلك ثقافة فرعية خاصّة بهم ترمز إلى ردّ فعلهم على الثقافة المهيمنة، والمهمّشين الذين استبعدتهم الأنظمة الاستبدادية وحالت دون مشاركتهم في الحياة العامّة فكانوا بذلك ضحيّة جشع من كان في سُدّة الحكم،محرومين من مواطنتهم التّامة، يكابدون من أجل تغيير واقعهم.

وبقطع النظر عن تباين وجهات النظر فإنّ الثابت أنّ الشبّان قد تحوّلوا في أغلب المجتمعات المعاصرة، إلى هامشيين/مهمّشين تلفظهم مؤسسات عديدة وتسدّ المنافذ أمامهم لاسيما وأنّ صانعي القرار ينظرون إليهم باعتبارهم فئة لا وزن لها. ويترتّب على ذلك إفراد الشباب «إفراد البعير الأجرب» فيتفاقم إحساسهم بالقهر والغبن والحرمان والذلّ والنبذ...

ولئن مال البعض إلى اعتبار الهامشيّين/المهمّشين مستسلمين وغبر قادرين على الاندماج وفاقدي روح المبادرة فإنّ المتابع للحراك الاجتماعي يدرك أنّ الشبّان من أكثر الفئات حرصًا على فكّ الحصار والتّعبير عن مطالبهم بل إنّهم ما انفكّوا يبحثون عن منابر وفضاءات تسمح لهم بالتفريج عن كُربهم حتى وإن كانت بدورها فضاءات

هامشيّة. وهم إذ يفعلون ذلك يثبتون أنّ تهميش السلطة الحاكمة لهم كان القادح الذي دفعهم إلى الالتزام بقضايا مصيريّة واختيار مسار المقاومة عن وعي.

ولمّا كان الشبان يمثّلون أعلى نسبة في التركيبة الديمغرافية للبلدان العربية فقد بدا من الضروري استقراء أشكال تعبيرهم عن التهميش وطرق تمثيل ذواتهم. نذكر في هذا الصدد وعلى سبيل المثال تكوين مجموعات على الشبكة الاجتماعية التفاعليّة «فايس بوك»، أو إنشاء مواقع ومنتديات للحوار على الشبكة العنكبوتية أو الكتابة على الجدران احتجاجًا على ما يجري من انتهاكات، أو الانتحار أو الانزواء، أو اللجوء إلى استعمال العنف وغيرها من الوسائل والأنشطة والممارسات وأنماط السلوك التي تؤكد أنّ موضوع التهميش له وشائج هيكليّة بالسياسة والاقتصاد وبنية المجتمع ونموذج التنمية السائد فضلًا عن العولمة.

وما دام إلمام الباحث/ة الواحد بكلّ هذه الأشكال التعبيرية في المجتمعات العربية المعاصرة وفهم دوافعها ومقاصدها أمرًا عسيرًا فقد كان الاقتصار على دراسة بعض النماذج ضرورة يفرضها المنهج والحيّز المخصّص لهذا البحث. ومن هنا ارتأينا أن نكتفي باستقصاء ردود فعل فئة من الشبّان التونسيين إزاء ظاهرة الإقصاء في المجال الافتراضيّ لِما لهؤلاء من صلة متينة بوسائل الإعلام الجديد. فهم يعتبرونها من أهمّ الوسائل التي تمكّنهم من التعبير عن غضبهم وتمرّدهم وحنقهم على كلّ أشكال السلطة القاهرة بما في ذلك النظام والمجتمع والأسرة. وقد استقرّ الاختيار على أنموذجين أوّلهما: التدوين، وخاصّة السياسي الاجتماعي باعتباره أداة من أدوات التعبير عن الذات في الفضاء الإنترنتي، وثانيهما: موسيقى «الراب» لكونها وسيلة من وسائل «التمكين» وتسجيل الحضور في مجتمعات تستبعد الشباب من المشاركة في الفعل المدنيّ. ونذهب إلى أنّ الأنموذجين: الافتراضيّ والواقعيّ خير معبّرين عن إرادة الشباب وحرصهم على اختيار مسار مختلف عن السائد وعن مدى توق هؤلاء إلى الخروج من السلبيّة باختيار وسيلة للتبليغ عن أصواتهم، فضلًا عن رغبتهم في التعبير عن مشاعرهم ومواقفهم ممّا يجري على الساحة الاجتماعية والسياسية من أحداث وتحوّلات.

وإذا عدنا إلى التعريف المتداول للمدوّنة Blog تبيّن لنا أنّها فضاء افتراضي ينشئه شخص ما لكتابة خواطره أو ملاحظاته، أو للتعبير عن مشاعره أو ردود أفعاله، أو لنشر صور أو فيديوهات أو مقالات أو معلومات مختلفة قد تكون شخصيّة أو علمية أو ثقافية...والمطّلع على حركة التدوين في العالم العربي يتفطّن إلى اتّسام المدوّنات بسمة التنوّع من حيث المضمون والأسلوب. وقد نجح بعضها في اختراق الجدران العازلة بين الناس جغرافيًّا وفكريًّا وإيديولوجيًّا، ما مكّن عددًا من المدوّنين من

التواصل مع الآخرين والتفاعل مع ما يعرضونه من أفكار، أو ما يعبّرون عنه من حالات وجدانية مختلفة. ولا يخفى أنّ تجربة التدوين تكشف النقاب عن القدرات الكامنة لدى المدوّن ودرجة إقباله على ممارسة فعل الحكي والبوح والتفاعل مع التعاليق والرسائل التي تصله ممّا يخوّل «للمستهلك» تفكيك الخطاب والوقوف عند أحلام المدوّن وآماله وتصوّراته عن الحياة والكون.

ولئن عنّ للدارسين تقسيم التدوين إلى تدوين كتابي وآخر صوتي وآخر تصويري عبر الفيديو فإنّ المتأمّل في المدوّنات العربية عمومًا يلحظ أنّ كلّ هذه الأصناف كثيرًا ما تتداخل مساهمة بذلك في إبراز مدى ثراء بعض المدوّنات. غير أنّ التصنيف الذي درج الباحثون على اعتماده هو الذي يفرّع المدوّنات إلى مدوّنات شخصيّة، ومدوّنات سياسيّة، ومدوّنات ثقافيّة، ومدوّنات اجتماعيّة، ومدوّنات فنيّة،.....

والجدير بالذكر أنّ التدوين يلتقي مع أشكال تعبيرية أخرى لعلّ أهمّها بالنسبة إلى فئة الشباب، غناء موسيقى «الراب»، وهو ضرب من الأداء الإيقاعي والجسدي باللهجة المحليّة المتداولة بين الشباب المعبّر عن مشاغلهم ونمط عيشهم ومشاعرهم التي تتراوح بين الحنق والغضب والكره والإحساس بالضعف والانكسار... ولعلّ سرّ إقبال جمهور الشباب على هذه النوعية من الأغاني مردّه قدرتها على تمثيلهم من جهة، وشعورهم بأنّ هذا الشكل الفنيّ قد فنّد القول الشائع إنّ الأجيال الجديدة سلبية من جهة أخرى. وعلى غرار المدوّنين أثبت فنّانو «الراب» أنّهم قادرون على إنتاج فعل إبداعيّ بوسائل محليّة وبسيطة. وهو عمل حقّق لأتباعه شهرة تجاوزت حدود البلاد التونسية.

أمّا سبب اختيارنا دراسة هذين الأنموذجين بربطهما بسياق ما قبل ثورة 14جانفي/ يناير/كانون الثاني 2011 فإنّه يبرّر بانتباهنا إلى أنّ أشكال التعبير عن التهميش في تونس السائرة نحو بناء التحوّل الديمقراطي، قد اختلفت عمّا كان معروفًا قبل الثورة أسلوبًا ومضمونًا، ممّا يجعل تاريخ اندلاع الثورة تاريخًا مفصليًّا قد أحدث تغييرات جوهريّة جعلت الفصل بين ما قبل هذا التاريخ وما بعده إجراء ضروريًّا.

1 ـ التدوين باعتباره شكلًا من أشكال مقاومة التهميش

تباينت الآراء بشأن استخدام وسائل التواصل الحديثة بين مُندّد بما ترتّب على اكتساح العولمة المجتمعات العربية من نتائج سلبيّة من جهة، ومُشيد بالثورة المعلوماتية التي وفّرت فضاءات للتعبير والتفاعل ونقل المعلومة، من جهة أخرى. إلّا أنّ الموقف الذي ساد هو الإقبال المتزايد على وسائل التواصل الحديثة باعتبارها أداة لكسر جدار الصمت وإثبات الذات وتحقيق التفرّد.

ويجمع الدارسون العرب على أنّ فئة الشباب هي الأكثر استعمالًا لهذه الوسائل التواصلية، ولعلّ هذا ما يميّزها عن غيرها من الفئات. فقد رأى الشبّان في الإعلام الجديد (الشبكة الاجتماعية التفاعليّة والمدوّنات، وتويتر، ...My Space-Tweeter) خير ملاذ يقيهم من بطش أنظمة قهريّة غيّبتهم وتجاهلت طاقاتهم وكفاءاتهم وأقصتهم عن المشاركة في الشأن العامّ وهمّشت حضورهم. وقد أفضى إيمان هؤلاء بأهميّة وسائل التواصل الحديثة إلى توظيفها لخدمة قضايا تشغل الشبّان بل سائر الناس. وسرعان ما نما لدى الأجيال الجديدة وعي بأنّ وسائل الإعلام الجديد يمكن أن تكون أداة للتعبير عمّا يعتورهم من مشاعر مختلفة وأداة احتجاج ومقاومة. تشرح فاطمة الرياحي صاحبة مدوّنة «فاطمة أرابيكا» الأسباب التي جعلتها تتّخذ المجال الافتراضي بديلًا عن الواقع بقولها: «يراودك البوح عن نفسك وتستكين لمحاولاته المتكررة لاستنطاق جسدك، أحلامك، تاريخك، إنسانيتك، وطنك، خيباتك كلّها، وتمارس شيئًا ما ميّزك منذ الأزل عن باقي المخلوقات...تتكلّم وتنطق...وتقول...ليس لأنك تدّعي بطولة وهميّة، بل لأنك مختنق بما لا تستطيع أن تبتلعه طواعية فكيف وإن كان قسرًا، أنت تتكلم لتحافظ على إنسانيتك أو لتستطيع أن تقنع نفسك بأنك ربما ـ وأقول ربما هنا عمدًا ـ لا تشبه القطيع الأعزل.

لقد جعلت الرقابة المسلّطة على المواطنين إنشاء المدوّنات السياسية الاجتماعية مسلكًا وعرًا لا يُقبل عليه إلّا الناشطون الحقوقيون أو من سار على دربهم. والواقع أنّ أسباب الإقبال على التدوين تختلف باختلاف تكوين الأفراد وثقافاتهم وانتماءاتهم وتركيبتهم النفسية. فمن الشبّان من اكتشف التدوين عن طريق الصدفة، ومنهم من بدأ بتدوين ما يعاينه من تجاوزات، ومع مرور الوقت بدأ ينتقد الأوضاع السياسية، ومنهم من انتقل من النضال الفعليّ في الواقع إلى النضال عبر التدوين، ومنهم من رغب في الكتابة بسبب تضييق السلطة السياسية الخناق على المواطنين وتكميم أفواه المعارضين.

ولئن اكتفى البعض بالتعبير عن آرائه وأحلامه وتسجيل ملاحظاته اليوميّة بشأن ما يعانيه، فإنّ البعض الآخر اتّخذ من التدوين مطيّة للنضال متسلّحًا بثقافة حقوق الإنسان ومقتديًا بالناشطين الحقوقيين هنا وهناك. فكان التدوين محاولة للمقاومة عبر الكلمة تُبين النقاب عن مدى تغلغل السياسية في كلّ مجالات الحياة وتحوّل الفضاء الافتراضي إلى فضاء يكرّس هامشًا من الحريّة.

وبالرغم من أنّ التدوين في تونس كان محدودًا ومحاطًا بعراقيل كثيرة مقارنة بالتدوين في مصر والعراق وسوريا والسعودية واليمن وغيرها من البلدان، إلّا أنّ الحجب والملاحقة لم يحولا دون بروز مدوّنات نهضت بدور هامّ في نشر الأخبار السياسية، وخاصّة تلك

المتعلّقة بالكشف عن فساد الأسرة الحاكمة ونقد الممارسات السلطوية، فضلًا عن بثّ الوعي بين جموع المتصفّحين للمدوّنات.

ولا يخفى أنّ حرمان الشبّان من حقوقهم في التعبير عن آرائهم بكلّ حرّية في المنابر العامّة وفي وسائل الإعلام الوطنيّة بسبب انتمائهم إلى حزب سياسي أو آخر أو بسبب أفكارهم أو نشاطهم في إحدى المنظمات الحقوقية، هو ما جعلهم يقبلون على عالم التدوين، ويرغبون في إنشاء مدوّنات خاصّة بهم متحاشين في أغلب الأوقات، اختيار عناوين ترمز إلى النضال حتى لا يثيروا فضول أجهزة الرقابة. نذكر من بين هذه العناوين«بنيّة تونسية» (فتاة تونسية)، «ابتسامة من الجنوب»، و«بنت عايله»، و«ظلمة»، و«غدوة نحرق» (غدًا أهاجر هجرة سرية).

ولئن اعتبر المدوّنون الشبّان الفضاء الافتراضي مساحة حرّة للكتابة ومتنفّسًا جديدًا وبوابة للعبور إلى العالم الخارجي وإيصال أصواتهم وآرائهم إلى نظرائهم في بلدان عربية وغربية، فإنّ الواقع المعيش أثبت لهم أنّ جهاز القمع هو لهم بالمرصاد ومن هنا كان عليهم أن يتجنّبوا التصريح بأسمائهم الحقيقية واللجوء إلى استعمال أسماء مستعارة كبدر السلام و«طه» و Clandestino . . غير أنّ هذا الإجراء لم يحل دون تعرّض أغلبهم لملاحقة رجال الأمن بل اعتقالهم، مثلما حدث للصحفي والمدوّن عبد الله زواري والمدوّنين سليم بوخذير وفاطمة الرياحي وغيرهم. ذلك أنّ كتابة مواضيع سياسية ونشر تقارير عن أوضاع حقوق الإنسان في تونس والتعبير عن مشاغل الشباب وأزماتهم يعدّ خرقًا للممنوع تواجهه السلطة بالاتهام بالتطاول على أعوان الأمن والاعتداء على الأخلاق الحميدة.

وتعكس طريقة اختيار المدوّنين التعريف بأنفسهم أو تقديم ذواتهم على حدّ عبارة Erving Goffman مدى معاناتهم وسيطرة نبرات الحزن والأسى على كتاباتهم. فبدر السلام اختار هذا الشعار يصدّر به مدوّنته: لا اسم لي. أنا مثلُ نسيم الجبال العليل. لا ملجأ لي. أنا مثلُ المياه المتدفقة. لا كتب مقدّسة لي، ولست في البخور المتصاعد من المذابح ولا في أناشيد الطقوس. لست مُحاصرًا بالنظريات ولا مُفسَدًا بالمعتقدات، ولا موثقًا بسلاسل الأديان، ولست في الأعلى ولست في الأسفل. أنا العاشق إذا عشقت. أنا حرّ وأغنيتي هي أغنية النهر المتدفق على هواه مناديًا المحيطات المفتوحة: أنا الحياة(كريشنا مورتي).

أمّا صاحب مدوّنة «فرييراس» (FREE-RACEرأس حرّ) فإنّه يعتبر أنّ مدوّنته هي محاولة شرسة وفي الغالب،ناجعة غايتها تحرير رأسه.

Free-race: tentative féroce, souvent efficace, pour libérer mon «Ras» (ma tête)

وبالرجوع إلى مضمون «التدوينات» ينتبه القارئ/ ة إلى أنّ هؤلاء المدوّنين قد اختاروا التحليق خارج السرب، مصرّين على أن يكونوا فاعلين في الواقع، وأن ينخرطوا في قضايا متعدّدة كالبطالة والفقر وانتشار المخدّرات والهجرة السريّة وغيرها. ولئن ارتأى البعض اعتماد لغة عربية فصحى مبسّطة، فإنّ البعض الآخر اختار اللهجة التونسية للتعبير عن آرائه وللتواصل مع الآخرين مازجًا أحيانًا بين اللهجة المحليّة والفصحى والكلمات الدخيلة باللغة الفرنسية أو الإنجليزية. أمّا أسلوب الكتابة فقد كان لدى البعض قائمًا على السخرية والتهكّم، ولدى البعض الآخر احتجاجيًّا ومباشرًا. يقول المدوّن سامي بن غربية في هذا الصدد: «أختار التحريض عن قصد كوسيلة لحفز المناظرة أو لإثارة رد فعل مشوّق على الأقل».

ومن بين المدوّنات التي اهتمّت بمشاكل الشباب مدوّنة «غدوة نحرق» التي لم يكتف صاحبها بنقل أخبار الشبّان الذين أقدموا على مغامرة الهجرة السريّة بعد أن ضاق بهم المقام في وطنهم، بل إنّه عكف أيضًا على تغطية ما حدث في مدينة الرديّف بالجنوب التونسي من أحداث أضرّت بالسكّان مثل الفيضانات والاحتجاجات التي واجهتها السلطة بالقمع.

ولا تختلف مدوّنة «ابتسامة من الجنوب» عن سابقتها فهي مدوّنة تسلّط الضوء على بعض مشاغل شباب الجنوب: «بأسلوب ساخر» وقد تطرّق فيها «طه» إلى مواضيع يهمّشها الإعلام الرسمي كمعاناة الشباب، وخاصّة في الجنوب التونسي من الفقر المدقع والبطالة والإحساس بالدونية. والواقع أنّ التركيز على مشاغل الشباب لم يجعل «طه» مهتمًّا برصد أداء الحكومة فقط، بل إنّه انتقد أيضًا استشراء ظاهرة العنف في صفوف الشبّان، وخاصّة المدوّنين. يقول في هذا الصدد تحت عنوان «العنف البلوغسفيري والأسئلة التي تبحث عن إجابات» بتاريخ 2009: وهل يمكن تفسير هذه الظاهرة بشعور المدونين بالإحباط؟ أو عدم الثقة في النفس؟ أو الاعتزاز بالشخصية، النرجسية، وهوس العظمة؟

وهل إن تفشي هذه الظاهرة مرتبط بضعف الحجج والعجز عن الإقناع واللجوء إلى أسهل الأشياء التي هي في متناول كل شخص ولا تتطلب أي جهد فكري: السب والشتم و...و...!

أم إن استفحال هذه الظاهرة هو تعبير مكثف لغياب الديمقراطية في واقعنا المعاش؟

لا أقصد بهذه التدوينة شخصًا معيّنًا أو بعض الأشخاص، إنما هي محاولة لإثارة ظاهرة العنف اللغوي لدى المدونين، الصحافيين الجدد ذوي المستويات العلمية العالية والقدرات الفكرية والمعرفية المرموقة!

نعم للحوار الراقي والناضج والمسؤول... حتى نكون قدوة للأجيال القادمة من المدونين...

وفي السياق نفسه خصّص صاحب «الموهبة التنبيرية» (الانتقاد) مدوّنته «هشهوش النبّار» لانتقاد جوانب من الحياة الاجتماعية والدينيّة في تونس ورصد بالخصوص العلاقات بين الجنسين وبعض الممارسات والسلوك الصادر عن بعض المحجّبات في الفضاءات العامّة وفي وسائل النقل العمومي. ولم يفت المدوّن إبداء رأيه في تدوينات زملائه والتعبير عن موقفه ممّا يجري في البلاد من أحداث، وإن بدا من الواضح اختياره تجنّب الحديث عن المواضيع السياسية بطريقة مباشرة. ويعلّل صاحب هذه المدوّنة اهتمامه بانتقاد بعض ظواهر من الحياة اليوميّة بـ«أنّ الإنسان توّاق إلى الكمال» وبشدّة تعلّقه بوطنه ورغبته في أن يسير قدمًا في ركب التقدّم.

أمّا لينا بن مهني صاحبة مدوّنة «بنيّة تونسية»، فإنّها كرّست مدوّنتها للتنديد بالأوضاع المتدهورة لاسيما وأنّها تعتبر نفسها «مناضلة من أجل الدفاع عن حريّة التعبير وضدّ اعتقال الناس بسبب آرائهم». ومن المواضيع التي تطرّقت إليها «لينا» في مدوّنتها قضيّة طلبة اتّحاد الطلبة الذين طردوا نهائيًّا من الجامعات، وقضايا سجناء الرأي والعمل السياسي، وقد وثّقت «لينا» ما جمعته من شهادات وما التقطته من صور ونقلت تفاصيل حول محاكمات الطلبة وسجناء الرأي.

والواقع أنّ نضال «لينا» لم يتوقّف عند هذا الحدّ فقد شاركت في تنظيم حملات ضدّ «الحجب» والرقابة الصارمة التي يفرضها النظام على الإنترنيت وساهمت أيضًا في الانتفاضة الإلكترونية ضدّ الرقيب «عمّار 404»، وهو الاسم الساخر الذي أطلقه المُحتجّون على الجهاز الحكومي الذي يشرف على حجب المواقع وقرصنة المدوّنات. وكانت «لينا» من بين الشبّان الثلاثة أصحاب مبادرة تنظيم مظاهرة سلمية «نهار على عمّار» أمام مقرّ وزارة «تكنولوجيات الاتصال» بالعاصمة للتنديد «بالرقيب 404» والذين وقّعوا طلب ترخيص قانونيّ من وزارة الداخلية في الغرض، لكنّه جوبه بالرفض.

ومن المدوّنات الطريفة مدوّنة وسام التليلي «محافظ نورمالند» التي كانت من أوّل المدوّنات التونسية التي تمّ إطلاقها على الإنترنيت سنة 2006. وتتمثّل فكرة هذه المدوّنة في إنشاء بلد افتراضي يعيش فيه مواطنون افتراضيون ولهم حكومة افتراضية. وقد انخرط وسام في كلّ حركات المساندة وكسر جدار الصمت التي قادها شبّان عن طريق التدوين وصفحات «الفايسبوك». وبالإضافة إلى ذلك شارك وسام في حملات ظرفية مثل «يوم الجلاء من الماء» وهي حملة تمّ إطلاقها بالتزامن مع الفيضانات التي اجتاحت بعض المناطق التونسية في خريف 2009، إضافة إلى الحملة السنوية «التدوينة البيضاء» وهي صفحة بيضاء يصدرها كلّ المدوّنين التونسيين احتجاجًا على حجب المواقع على الإنترنيت المفروض من النظام.

لقد أغرت هذه الحملات فئة أكبر من الشبّان بالخروج من دائرة الصمت وقد استطاع عدد منهم اختراق النظام البوليسي القائم فنشروا المعلومات وتبادلوا المقالات النقدية والصور على الإنترنيت وعرض بعضهم «خارطة السجون التونسية» التي تحدّد المواقع التقريبية لسجون تونسية على خارطة غوغل، مع أشرطة موثّقة بالصورة والصوت لسجناء سياسيين، ونظّموا النضال بالدعوة إلى الإضرابات والحركات الاحتجاجية.

وكان المدوّنون يبحثون دائمًا عن حلول تخرجهم من الحجب القسري فكلّما حجبت مدوّنة غيّروا عنوانها بإضافة رقم يدلّ على عدد مرات الحجب، أو عطّلوا الحجب باستعمال «البروكسي». ويعدّ معزّ الباي صاحب مدوّنة «بأجنحة ماغون» من أبرز المناضلين، فقد تعرّض للتضييق والمحاصرة والإيقاف أكثر من مرّة بسبب نشاطه «الافتراضي» غير أنّ ذلك لم يزده إلّا إصرارًا على مواصلة العمل. وقد وجد في الإعلام «المواطنيّ» وخاصّة التدوين أداة قويّة وفعّالة لإيصال صوته وصوت المضطهدين من أبناء جيله إلى أوسع نطاق. يقول معزّ في هذا الصدد: «كنت في كلّ مرّة أستشعر (كذا) أنّ هذا الفضاء تحوّل إلى فضاء بديل عن الحرية التي حرمنا منها، فيتنازعني هاجسان: الإيمان بأهميّة الفضاء الافتراضي في معركة الحرية والكرامة والخوف أن يتحوّل إلى فضاء بديل وأن يتحوّل النضال إلى نضال افتراضيّ».

ويشرح المدوّن سامي بن غربية وجهة نظره في هذا الموضوع مشدّدًا على أنّ حرّية التعبير تمثّل أهمّ مطلب بالنسبة إلى المدوّنين. يقول: «بالنسبة لي، قطع كلام الآخرين يعني حرمانهم من التفكير، أي بعبارة أخرى تجريدهم من جوهرهم. وكلّ العراقيل الموضوعة أمام حرية التعبير، سواء أكانت سياسية أو دينية أو اجتماعية، تنزع إلى تحويل البشر إلى بهائم والحطّ من قدرهم. وتصبح الكلمات بوجود الرقابة كالنهيق وتغدو الناس حميرًا والمجتمع إسطبلًا. ولهذا فإنّ حرية التعبير في شبكة الإنترنت تكتسي بالنسبة لي أهمية قصوى، وخاصة في المدوّنات لأنّها تتيح للأفراد المطالبة بصفتهم كمواطنين

عبر الحديث عن المواضيع المحرّمة وعبر التنافس مع وسائل الإعلام التقليدية، أو حتى هزّها هزًّا في بعض الأحيان».

وعلى غرار وسام التليلي، ولينا بن مهني، ومعزّ الباي أنشأت هناء الطرابلسي مدوّنة اختارت لها اسم «ظلمة» وهي إحدى شخصيات «حدّث أبو هريرة» للكاتب التونسي محمود المسعدي، وقد أطلقتها سنة 2007 على الإنترنيت. وقد اكتشفت «هناء» التدوين عن طريق أصدقائها على «الفايسبوك» وكانت في البداية تسجل في مدوّنتها بعض الخواطر وتنشر بعض التحليلات الأدبية ثم انتقلت إلى نقد بعض الظواهر الاجتماعية كالبطالة وغلاء المعيشة. وتعتبر هناء نفسها من بين الذين تجرؤوا على الخوض في المواضيع السياسية والمواضيع المحظورة وقد شاركت في حملة «نهار على عمّار» احتجاجًا على الحجب والقمع ومنع حرية التعبير.

ولا يختلف الأمر بالنسبة إلى فاطمة الرياحي التي أنشأت مدوّنتها الموسومة بـ«فاطمة أرابيكا» وخصّصتها للتعبير عن مواقفها ممّا يجري من انتهاكات بحقّ المواطنين معبّرة عن توقها إلى الديمقراطية والحريات منتقدة سياسية الحكومة تجاه الشباب وعجزها عن فهم مشاغلهم.

والواقع أنّ شيوع حالة الاستياء دفع الحكومة إلى الردّ على تململ الشبّان بإحداث برامج للعناية بهم ولكن سرعان ما احتجّ المدوّنون على هذا الأسلوب في معالجة قضاياهم مثبتين استشراء أزمة انعدام الثقة بين الشباب والسلطة مشكّكين في نوايا كلّ مبادرة. جاء في مدوّنة «فري راس» بتاريخ 2008 موقف صاحبها من قرار الدولة تخصيص برنامج للشباب يقول: «ما الذي استفاده مخططو حملة الحوار مع الشباب يبدو أنّ الحاجة أصبحت مُلحة للتعرّف أكثر على هذا الشاب.. الذي أصبح يفاجئ الجميع بين الفينة والأخرى بالقلاقل التي يُسببها... فكان لا بد من حملة يُستدرج فيها للبوح فكان أن خُطط للحملة لتسير بالشكل التالي: إيهام... استدراج... انسياق... فرز وتحليل بهدف الدمغجة La démagogie وتسهيل السيطرة...»

1 ـ الإيهام بوجود نية صادقة للحوار

2 ـ استدراج الشباب للبوح.. ولو بطريقة محتشمة عبر الاجتماعات المباشرة ومنتديات الحوار الافتراضي..

3 ـ انسياق القلة القليلة من الشباب الحالم وتوجههم نحوالتطرق لمواضيع حساسة... تشمل هذه المواضيع تطلعات الشباب ورأيه حول الوضع العام بتونس في مجالات حيوية... سياسية واقتصادية واجتماعية...

4 ـ فرز وتحليل (تحت الطاولة) المساهمات الأكثر جرأة...حتى تلك «المصنصرة...La censure» لأنها ببساطة الأكثر صدقًا والأقرب للواقع..

5 ـ تحليل المعلومة (دائمًا تحت الطاولة) سبر الآراء مكّن من التعرف، بشكل أكثر دقة، على بعض الجوانب الخفية من الشباب التونسي: همومه، ميولاته، طموحاته... مما سيُسهل التعامل معه ومحاولة «دمغجته démagogiser مستقبلًا»..

وعلاوة عن الكتابة حول مشاكل الشباب كقضيّة السكن الجامعي، وسجن الطلبة المنتقدين للنظام، ومعضلة حجب المدوّنات، ومنع حرية التعبير...تطرّقت صاحبة مدوّنة «بنت عايلة» إلى سياسة الحكومة. جاء في تدوينة بتاريخ 2010 «راهوالسياسة هاذي اكبر اعتراف بفشل ذريع في تحقيق التطور الاجتماعي. اش معناها بعد واش وعشرين سنة(21) من التغيرات الثورية والإصلاحات الجذرية، ولازلتم ترون أن التوانسة عديمي أهلية؟ هاذا الكل هوما غير قابلين للتطور وللتنوّر؟ ولّا انتوما فشلتوفي النهضة البشرية؟ ولّا بالعكس هوما امخاخهم محلولة أكثر ممّا يساعد؟ يا لي تحب تتحاور مع الشباب هذي اخباروالشباب».

والملاحظ أنّ صاحبة المدوّنة اقترحت جملة من الحلول منها: «التضامن المطلق وغير المشروط مع الطلبة المسجونين لأنّهم طالبوا بحقّ أساسي وبديهي من حقوق البشر. كنت بش نكتب ع الموضوع بشوية سخرية كي العادة ياخي لقيت طعم الملح والمرارة هوا اللي غالب.المشكلة هاذي فيها فرعين. فيها «معضلة» السكن وفيها الرد العنيف بالسجن وبعقوبات قاسية على الطلبة».

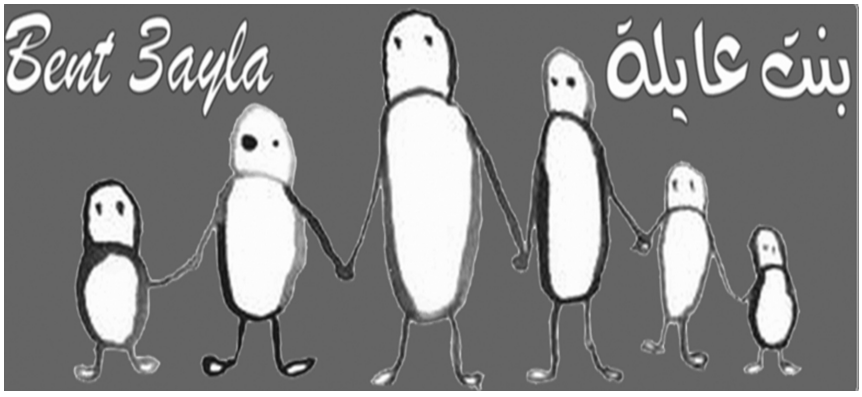

يقودنا الاطلاع على هذه النماذج إلى الإقرار بأنّ التدوين «مجال خصب للتعبير عن الذات وتنامي الشعور بالتمكين: يمكن لأي مدوّن أن يعبّر عمّا يجول في نفسه من مشاعر وآراء عن طريق التدوين، وأن يتلقّى ردود القراء بحيث يشعر أنّ صوته يمكن أن يصل إلى جمهور عريض ومن ثمّ يوفّر التدوين شعورًا مفعمًا بالتحقّق الذاتي والشهرة وتنامي الإحساس بسيطرة المرء على حياته».

وقد عرف النشاط التدويني السياسي الاجتماعي التونسي تطوّرًا ملحوظًا. فقد كان في البدء، تسجيلًا لأحداث ونقلًا لشهادات شخصية، ثمّ نما وتطوّر ليصبح وسيطًا معرفيًّا ووسيلة للتعبئة ومساحة للتعبير، وأداة لتعرية النظام الاستبدادي وفضح ألاعيبه وإطارًا لنشر ثقافة تشاركية مواطنية.

غير أنّ هذا النشاط، وإن وفّر مجالًا للمشاركة السياسية لم يستطع بمفرده إحداث التغيير المجتمعي المطلوب. ففي ظلّ غياب إرادة سياسيّة صادقة راغبة في إجراء إصلاحات ديمقراطية حقيقية، لم يكن بإمكان المهمّشين إلاّ الهجرة أو العزلة أو اختيار درب النضال. ومن بين الذين ارتأوا المقاومة سبيلًا فئة من فنّاني «الراب» اتّخذت من الموسيقى وسيلة للتعبير عن القهر والحرمان والتهميش وأداة لتغيير الواقع.

2 ـ موسيقى الراب: وسيلة للتنفيس والتعبئة والاحتجاج

تجدر الإشارة إلى أنّ «الراب» ينضوي تحت ثقافة الهيب هوب Hip Hop وقد انتشر في تونس في العقد الأخير من القرن الماضي واستطاع أن يكوّن جمهورًا يلتفّ حول أبرز رموز هذا الفنّ. فعلى سبيل المثال نجح «بلطي» في أن ينتج مجموعة من الأغاني جذبت فئة كبرى من الشبّان لتضمّنها انتقادًا لاذعًا للأوضاع الاجتماعية وتركيزها على عرض أحلام الأجيال الجديدة ووصف معاناتها. وقد عبّر «بلطي» في أغانيه عن سيطرة مشاعر اليأس على الشباب وخيبة أملهم في الحكومة بسبب غياب العدالة الاجتماعية واستشراء الفساد وانعدام تكافؤ الفرص بين الجميع، وجنوح أصحاب القرار إلى استعمال المعايير المزدوجة، فضلًا عن غياب منوال تنموي جديّ إلى غير ذلك. وقد جنح «بلطي» وغيره من ممارسي هذا الفنّ إلى المزج بين اللهجة التونسية والفصحى والكلمات الأعجميّة في محاولة للخروج عن السائد والتعبير عن الواقع المعيش.

أمّا أسباب الإقبال على ممارسة هذا الفنّ فإنّها تعود حسب «بلطي» إلى أنّه «عندما تنشأ في منطقة فقيرة كهذه وسط الجريمة والبطالة والكحول والمخدرات لا يبقى أمامك سوى خيارين: إمّا أن تصبح مجرمًا، أو أن تجد مخرجًا من هذه الظروف من خلال الموسيقى أو الرياضة». وقد اختار بلطي منذ المراهقة عالم الموسيقى: «الراب الواعي» ليكون قارب النجاة وجواز العبور إلى عالم أرحب». غير أنّه سرعان ما أدرك أنّ ممارسة الراب قد تُحوّل صاحبها إلى مهمّش. يؤكد «بلطي» ذلك بقوله: «لقد بدأت مسيرتي في الراب في ظرف اعتبر فيه هذا النوع من الفنّ صدمة بالنسبة للجمهور التونسي. نبذني الكثيرون واشمأز مني الكثيرون».

ولا يختلف الأمر بالنسبة إلى وجدي الطرابلسي المعروف فنيًّا بـ«ماسكوت» فقد احتجّ بدوره على نظرة الاحتقار التي يواجهها مغنّي الراب «فعدد كبير من الناس» يعتبرون الراب فنًّا

هابطًا وغير أخلاقي، وقد وقفوا ضدّ حضور هذا الشكل الموسيقي ورواجه في تونس، ويعتبرونه انحرافًا وتفسخًا وبعيدًا عن أصولنا وتراثنا».

ويشترك محمد أمين زرّوق المعروف فنيًّا بكنزي مع «بلطي» و«ماسكوت» وغيرهما من فنّاني «الراب» في اعتبار هذا النمط الموسيقي فضاءً للتعبير عن معاناة جيل بأكمله ووسيلة لتبليغ أصواتهم إلى الناس وتفجير طاقاتهم. ويحرص فنّانو«الراب» على أن يتفاعل الشباب معهم وأن ينتبهوا إلى أنّ خطابًا جديدًا بصدد التكوّن، وهو خطاب لا يطرح البديل بقدر ما يسعى إلى وصف الحالة المتردية للمهمّشين ومقاومة الضغوط وفضح صور القمع والاستلاب.

وعلى هذا الأساس يتحوّل «الراب» في نظر المولعين به إلى أداة رفض لجميع رموز السلطة (الأب، المعلّم، القائد، المثقف، السياسي...) ووسيلة لفضح سياسة الحكومة وبيان مسؤوليتها عن انتحار الشباب غرقًا بسبب إقدامهم على الهجرة السريّة، أو معاناة أغلبهم من الإحباط. غير أنّ هذه الجرأة في التنديد بالفساد عرّضت عددًا من فنّاني «الراب» للرقابة والمنع. فقد أقدمت الأجهزة الأمنية على غلق شبكات الاتصالات والإنترنت للحيلولة دون مشاهدة العديد من أغاني «الراب» المسجّلة على الفيديو على مواقع الإنترنت متوقّعة بذلك منع هذه الأصوات من التأثير في الجماهير. ولا يخفى أنّ صدور أغنية «رئيس البلاد» للمغنّي المعروف بالجنرال دفع وزارة الداخلية إلى شنّ حملات اعتقال في صفوف مغنّي «الراب» لما تضمّنته هذه الأغنية من جرأة غير مسبوقة.

ويذهب عدد من النقّاد إلى أنّ أغاني «الراب» نجحت أكثر من غيرها من أشكال الفنون وأنماط الإبداع في التعبير عن آراء الشباب وتطلّعاتهم ووصف مشاكلهم اليومية، وقد نجم عن ذلك تأثّر هؤلاء بعدد من فنّاني «الراب» وتماهيهم معهم بل إنّ فئة من الشبّان اعتبرت فنّان «الراب» أنموذجًا يقتدى به، خاصّة وأنّ الاستمتاع بـ«الراب» لا يتطلّب الحصول على شهادات علميّة والتشبّع بزاد ثقافيّ كبير.

ومقارنة بالتدوين يعدّ التعبير عبر موسيقى «الراب» أكثر انتشارًا بين الناس، خاصّة في الأوساط الشعبيّة نظرًا إلى ميل أهل «الراب» إلى استخدام المفردات اللغوية ذات الطابع الشبابيّ والعفويّ التي تستقطب عامّة الفئات الشبابيّة المحدودة التعليم والتي لا تملك القدرة على الاطلاع على المدونات ولا على التعليق على المادة المنشورة فيها. أضف إلى ذلك أنّ الاستماع إلى «الراب» لا يرتبط بمكان أو زمان، وهو أكثر يسرًا من متابعة المدوّنات التي ترتبط بتوفّر حاسوب والإنترنت. وقد لا نبالغ إذا اعتبرنا أنّ النزعة «الشعبويّة» Populisme التي تسم «الراب» تشعر الشباب العاطل عن العمل بأنّهم يشكّلون «جماعة انتماء» تقتسم الهموم نفسها.

يعدّ فنّان «الراب» ابن الشعب وهو يتفنّن في سرد ما يجري في الشارع من أحداث، وفي كشف النقاب عن المستور الذي يتعمّد أغلب أصحاب الثقافة «العالمة» تغييبه أو تجاهله. وهو إذ يفعل ذلك يريد كسب الاعتراف: اعتراف جميع المؤسسات التي تمارس الإقصاء والاستبعاد والتهميش بحقّ هذه الفئات المسحوقة في الحياة علّها بذلك تراجع مواقفها وتخرج من حالة القصور والعمى لتتأمّل في الواقع وتحلّله بغية إيجاد الحلول الملائمة التي تحفظ للمهمّشين حقوقهم وتصون كرامتهم وتحترم إنسانيتهم.

وبقطع النظر عن أسباب نجاح عدد من فنّاني الراب في التأثير في الشباب فإنّ تحليل المنتج الثقافي والنظر في خصائص الخطاب الموجّه إلى الشباب كفيلان متى أنجزا على أسس علميّة، بأن يُبيّنا لنا مدى تعطّش الشباب، وخاصّة المهمّشين إلى فضاءات بديلة وأدوات تعبير وآليات تمكّنهم من البوح بما يجول بخواطرهم من أفكار وبوجدانهم من مشاعر. ولا معنى في تقديرنا، لإقبال الشباب على «الراب» إلاّ لأنّه أضحى في نظرهم، أداة تعبيريّة تتجاوز حواجز اللغة والجغرافيا والدّين والانتماء لتصبح ثقافة وأسلوب حياة ووسيلة تعبير عن الذات لاسيما وأنّ «الراب» ينهل من معين الثقافة الشفويّة أكثر من الثقافة العالمة المدوّنة. ويمكن القول إنّ الولع بأغاني «الراب» مردّه رفض التصوّر السلطوي الذي كان يوظّف الغناء للإمتاع أو للاستلاب وتثبيط همم الشعوب، وسعي في المقابل، إلى تغيير هذه النظرة الأحادية إلى وظيفة الفنّ.

لا مراء أنّ مغنّي «الراب الملتزم» كما يحلو للبعض تسميته، يرفض أن يسخّر أغانيه لهذه الغاية معتبرًا أنّ الفنّ محاكاة للواقع على حد عبارة بودريار Beaudrillard ولا بدّ أن تعرّي الأغاني حقيقة ما يجري في عالم المهمّشين وأن تنقل تصوّرهم للحياة ورؤيتهم للكون. ولعلّ اللجوء إلى أسلوب الاحتجاج والاستفزاز والاعتماد على لغة تبدو في نظر البعض، بعيدة عن آداب التخاطب معبّران عن حاجة المهمّشين إلى الإخبار عن نمط حياتهم ومعاناتهم ولفت انتباه أصحاب القرار، وتشكيل «صوت» قادر على إرباك النظام وإحراجه. وما دام هؤلاء الطغاة لا يصغون إلى أنين الشباب ويستهترون بما يكابدونه فإنّ العنف اللفظيّ صار في بعض أغاني «الراب»، «سيّد الميدان».

ولئن اعتبر البعض أنّ العنف يوظّف للتعبير عن الرفض السياسي ونشر الوعي بين صفوف الناس الذين فقدوا الرغبة في الحياة وارتموا في أحضان السلبيّة فإنّ استقراء مضمون نسبة من أغاني «الراب» يومئ إلى توظيف هذا النمط الموسيقي للتعبئة الإيديولوجيّة فصار بعض مغنّي «الراب» أشبه ما يكونون إلى الدعاة الدينيين الأصوليين الذين لا همّ لهم سوى الترويج لثقافة الكراهية ونبذ الآخر. وبناء على ذلك يتحوّل المهمّش بدوره، إلى ممارس للإقصاء والفرز على أساس المعتقد.

ولئن كان هدف هذه الفئة من مغنّي «الراب» نقد الخطاب السياسي الاجتماعي السائد فإنّ الناظر في دلالات ما أنتجوه يكتشف أنّهم يعيدون إنتاج خطاب قمعيّ ولكن هذه المرّة باتّجاه المختلف دينيًّا.

ولعلّ السؤال الذي يتبادر إلى الذهن في هذا المقام: إلى أي حدّ استطاع مغنّي «الراب» أن يمثّل الشباب أم أنّه قد انقلب بدوره إلى ناطق باسم فئات إيديولوجية تتصارع متّخذة قضايا الشباب ذريعة لتحقيق مآرب أخرى؟ وإذا علمنا أنّ الشباب لا يمثّلون وحدة متجانسة ولا كتلة واحدة أدركنا أنّ قضايا المهمّشين معقّدة ومركّبة لا يمكن لأي طرف أن يدّعي أنّه أكثر من غيره قدرة على فهمها والتعبير عنها.

الاستنتاجات

إزاء تعمّد وسائل الإعلام الرسميّة الأحادية التوجّه تغييب مشاكل الشباب، وخاصّة شباب الجهات الفقيرة والمحرومة من العدالة الاجتماعية، وإزاء صمت النخب أو اكتفاء البعض منها بالإشارة إلى معاناة الشبّان في غضون خطاباتهم حول التنمية وتحديث البلاد، قرّر المهمّشون / الهامشيون الخروج من حالة الصمت الإرادي أو التصميت مصرّين على امتلاك حقّ تمثيل ذواتهم بأنفسهم دون اللجوء إلى الوسيط. وإن كان هؤلاء لا يملكون المال أو السلطة أو الدعم فإنّهم رأوا أنّ الكلمة سلاح لا يمكن الاستهانة به وأنّها تمثّل سلطة قادرة على مواجهة بقية السلطات.

وأمام انعدام فرص تشجيع الشباب على التجريب والمغامرة وتعنّت النظام واستمراره في العبث بمصير المهمّشين كان على هؤلاء أخذ زمام المبادرة والبحث عن مخرج فكانت وسائط الاتصال والنشر الإلكتروني الإنتاج البديل الذي يوفّر للشبّان إمكانيات للخروج من حالة الإحباط والشعور بالقلق واليأس. وقد ترتّب على انتشار وسائل الإعلام الجديدة وتطوّر التكنولوجيا إطلاق عنان المواهب المكبوتة، واقتحامها مجال الإبداع وإصرارها على الإسهام في رسم معالم الثقافة وتجديدها، والمشاركة في تحديد ملامح ممارستها المستقبلية استهلاكًا وإنتاجًا. وبدل أن تشجّع سياسة الحكومة الشباب على أن ينهضوا بدور وأن يشاركوا من موقعهم، في رسم المستقبل صارت هي الكابح والمعرقل فكان لا بدّ من تصحيح المسار.

إنّ هذا الجيل الذي يسمّيه البعض جيل «بن عليّ» (نسبة إلى الرئيس السابق) لم ينخرط في العمل السياسي بالمفهوم الكلاسيكي ولم يكن حاملًا لمشروع تغيير واضح المعالم بقدر ما كان قادرًا على الاحتجاج ومواجهة أشكال الهيمنة الطبقية والسياسية والفكرية، من خلال التدوين والحوار في المنابر الإلكترونية والغناء والرقص وغيرها من الوسائل المتاحة للتعبير.

وهي أشكال من التعبير تتسم بصفة التنوّع قد تكون مباشرة وقد تكون غير مباشرة، وقد تتضمّن حلولًا وقد تكتفي بالانتقاد والفضح والتشهير والسخرية اللاذعة، وقد تكون مرتكزة على خطاب عميق الدلالات، وقد تكون معتمدة على خطاب مفكّك وهزيل. وفي كلّ الحالات ساهمت هذه الأشكال التعبيرية والممارسات الثقافية في تشكيل هويّة الفرد الثقافية وفي التخفيف من شدّة الاحتقان أو في حالات أخرى في التصعيد من وتيرته.

ويمكن أن نعتبر أنّ هذه الأشكال التعبيرية قد ساهمت في توعية الشباب بأهميّة البحث عن مخرج قد يكون في الفنّ أو في الاحتجاج في الشارع....ودفعت المهمّشين إلى البحث عن فضاءات للتحرّر إذ إنّ الاستمرار في «لعب دور الضحيّة» والاكتفاء بوصف المعاناة لا يمكن أن يؤديا إلى نتائج إيجابية. ولعلّ سبب هذا الوعي السياسي والحسّ الوطنيّ يعود إلى انتشار وسائل التواصل الحديثة التي مكّنت الشبّان المهمّشين من الاندماج في جماعات عضوية و«التشبيك» مع جماعات تعيش المعاناة نفسها هنا وهناك فضلًا عن عولمة طرق ممارسة الحريات وتقديم الذوات والتعبير عن المشاعر.

وممّا لا شكّ فيه أنّ وعي الشبّان المهمشين بالوسائل التي تُحقّق لهم التمكين طوّر مواهبهم وأتاح لهم فرصة الانتماء إلى مجموعات عضوية وَحّدت بين صفوفهم، فكان ظهور تجمّع المدوّنين الذي استطاع أن يحوّل التدوين من ظاهرة فرديّة إلى ظاهرة جماعية. وفي السياق نفسه تكوّنت لحمة بين فنّاني «الراب» جعلتهم يفكّرون في الإنتاج المشترك. وهكذا كانت وسائل التعبير في كثير من الحالات، علامة دالة على تكريس قيم التضامن والتعاون المشترك بين صفوف المهمّشين بهدف الخروج من حالة الإقصاء إلى حالة الاحتواء والانتماء، ومن حالة السلبيّة إلى حالة البحث عن مبادرة للخلق وإنتاج المعاني الجديدة التي من شأنها أن تقوّض المسلّمات والثوابت وتربك منظومة الصور النمطية التي حاصرت الشباب في العقود الأخيرة.

الخاتمة

لقد سعينا خلال هذا البحث، إلى أن نكشف النقاب عن محاولات برزت في أوساط فئة من الشباب التونسي تنّم عن وجود رغبة في تغيير أوضاع المستبعدين والمهمّشين بصفة خاصّة. وقد استقرّ اختيارنا على دراسة تجارب المدوّنين ومغنّي «الراب» لأنّ هذه الأشكال التعبيريّة لا تحظى في الغالب، باهتمام الدارسين العرب بل إنّ معظم الأكاديميين ينتقدون بشدّة انكباب عدد من الدارسين على استقراء هذه التجارب التي تنتمي إلى «ثقافة الأنفاق» ويرون أنّها دراسات لا تليق بالمثقّف، ومن هنا فإنّها تعدّ متى أنجزت، دراسات على الهامش. وهكذا يتّضح أنّ الأعمال والبحوث تخضع لتراتبية هرميّة وهو ما يولّد بناء هامشية جديدة ومهمّشين جدد.

وقادنا البحث في هذه التجارب على اختلافها ، إلى تبيّن مدى حرص أغلب هذه الفئات على أن تكون داخل التاريخ لا خارجه ، وفاعلة في الواقع لا خانعة راضية بالمقدّر والمكتوب. ولئن فضّل البعض التعبير عن مأساة التهميش عبر الجريمة أو الانتحار أو الجنون أو الصمت...فإنّ البعض الآخر اختار تسخير القلم للبوح بما يفكّر فيه أو توظيف الموسيقى لتوجيه الرسائل الاحتجاجية. وهذا الاختيار يعكس في الواقع، رغبة في توظيف هذه الأشكال التعبيرية من أجل إثبات الذات وإبراز القدرة على الفعل والخلق والإنتاج والإبداع، أي البحث عن معنى للحياة.

إنّ هذا السعي الحثيث من أجل تبليغ الصوت ولفت الانتباه يوحي بمدى إيمان فئة من المهمّشين بضرورة مغادرة هذا الوضع «الإشكالي التراجيدي». ولكن إلى أيّ حدّ نجح هؤلاء في تغيير واقعهم ونظرة الآخرين لهم أم إنّ ديناميكية الخروج عن النسق لم تكن إلّا حالة ظرفية تعجز عن تحقيق الديمومة ؟إنّها صرخة مدوّية يطلقها الشبّان بوجه الأنظمة الفاسدة بهدف إرباكها وإزعاجها حتى تعالج المشاكل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بكلّ جديّة وتحقّق مطالب الفئات المحرومة. غير أنّ هذه الصرخة تبقى وليدة اللحظة ومرتبطة بسياق تاريخي وسياسي وثقافي ولا يمكن لها أن تتخطّى حدود المُمكن التاريخي.

ولعلّ أكبر غنم تحقّق لهذه الفئات التي انخرطت في المقاومة عبر الكلمة والصوت هو أنّها استطاعت أن تتمسّك بحقّها في الحياة وأن تصوغ خطابًا معبّرًا عن حبّ البقاء. ولا يُطلب من جميع المتقبّلين فكّ شفرات هذا الخطاب بقدر ما يطلب منهم أن يدركوا أنّ من الشبّان فئة فارقت الأشكال التقليدية المعبّرة عن التهميش وشكّلت خطابًا جديدًا لا يطرح البديل المتوقّع تنظيرًا بقدر ما يقاوم الضغوط والقمع والاستلاب. ويمكن الإقرار بأنّ فضل المهمّشين يتجسّد في استنباط وسائل مبتكرة لمواجهة التهميش من جهة، وفي منع مجموعة من الشباب المؤيّد لسياسة الدولة (شباب حزب التجمّع الدستوري)من احتكار العمل الشبابي والنطق نيابة عن جميع الشبّان،من جهة أخرى.

ولئن رامت السلطة الاستبدادية لجم هذه الأصوات المعارضة فإنّ المدوّنين وفنّاني «الراب» وغيرهم أصرّوا على أن يكونوا جيلًا من «المناضلين» لا يحتجّون عبر القنوات التقليدية(المطلبية النقابية، الثورة بالمفهوم الماركسي، وإنتاج الإيديولوجيات...)بل عبر آليات وفّرتها ثقافة حقوق الإنسان. ولكن إلى أيّ مدى سيتسنّى لهذه الفئات نيل حقوقها والتمسّك بفرادتها وخصوصية تجربتها في الوقت نفسه ؟

لقد أمكن لهذه الفئات أن تُلفت انتباه العموم إلى وضعها وأن تثير فضول المتابعين للحراك الاجتماعي الثقافي، وهو أمر استدعى خلق طريقة مغايرة في التفكير. فقد استطاع المهمّشون فكّ الحصار وتعليم الناس آليات أخرى للمقاومة(استعمال وسائل التواصل

الحديثة، والتشبيك، وتصوير الأحداث...) وحثّوهم على إنتاج استراتيجيات جديدة للنضال والتفاعل مع الآخرين. وبناء على ذلك بات من الضروري التّمييز بين أشكال احتجاجيّة إيجابيّة تكتسي قدرًا من المشروعيّة وأخرى سلبيّة، وغير مشروعة. بيد أنّ هذا الحرص على التعبير بقي مفتقرًا، في نظرنا، إلى خطّة بعيدة المدى بوسعها تحويل الأفكار إلى برنامج عمل شبابيّ موسّع غاية ما أمكن لهذه الفئات فعله هو الاكتفاء بالتنديد والتشهير والاحتجاج. وهو أمر مفهوم بسبب غياب حريّة التعبير وضعف مناهج التعليم وغياب الفكر النقدي ومنابر الحوار فضلًا عن انعدام ثقافة سياسية متينة.

ولئن عاب الدارسون على فئة من الشبّان استبدالهم الواقع العمليّ بالعالم الافتراضي فإنّ المدوّنين وفنّاني «الراب» عالجوا هذه الفجوة. إذ إنّ أغلبهم تمكّن من الانتقال من الواقع الافتراضي إلى الواقع المعيش أو العكس مُحدثين بذلك علاقة عضوية تفاعلية بين المجالين ومثبتين أنّهم لا يهربون ولا يتقوقعون على ذواتهم، بل يسهمون من خلال الفضاء الشخصي في تصوّر مشروع مجتمعيّ جديد.

والواقع أنّه ليس بوسع المتأمّل في هذه التجارب أن يتجاهل الدور الذي اضطلعت به هذه الفئات المهمّشة «الصاخبة» إذ استطاعت أن تُحدث «ضجيجًا» من حولها وأن تنخرط في فعل التغيير، ومن ثمّ لم يكن تعبيرها عن التهميش وسيلة تنفيس بقدر ما كان آلية للتعبئة وبثّ الوعي وتحريض الجموع حتى تهبّ من مرقدها. وبالفعل أثبتت الثورات والانتفاضات التي عمّت العالم العربي خلال سنة 2011 مدى إفادة الشبّان من الشبكة التفاعلية و«تويتر» وغيرها من الوسائل التواصلية لتنظيم تحرّكاتهم وتبادل المعلومات والتنسيق بينهم والإفادة أيضًا من تجارب من سبقوهم كالمجموعات الفايسبوكية المصرية والإيرانية وغيرها. وقد استطاعت هذه الفئات تغيير أنماط التفكير والعمل والتخطيط فهي أكثر براغماتية وتركيزًا على الجانب العملي من الأجيال السابقة التي كانت تنطلق بالتنظير فالتطبيق وتنضوي تحت الإيديولوجيات المحرّكة للعمل النضالي.

نخلص إلى القول إنّ النظر في أشكال التعبير عن التهميش يتطلّب في اعتقادنا، تغييرًا في طريقة نظرة الدارسين إلى هذه الأشكال التعبيرية وفي أدوات تحليل كتابة التدوينة وآليات القراءة والتفكيك.... فالمنتج الثقافي للمهمّشين/ الهامشيين يُجبر أصحاب «الثقافة العالمة» بالضرورة، على مراجعة زادهم المعرفي والإقدام على تحليل «ثقافة الشباب» و«الثقافة الشعبية» بهدف اختبار مدى إفادة هذه الفئة من الشبّان من تجربة التهميش إذ لا يخفى أنّ هذه الأشكال التعبيرية الجديدة والهجينة ساعدت على تحقيق أحلام بعض المهمّشين وبناء هويتهم فنجم عن ذلك «التمكين» وتغيير المواقع الاجتماعية.

ونذهب إلى أنّ التعامل مع هذه الثقافات الفرعية يقتضي التحرّر من طريقة التفكير وفق النظام الثنائي المتضاد أو القطبي: المعترف به / المهمّش، وأشكال تعبيرية مسموح بها وأخرى «مرذولة»، والخاصّ/ العامّ، والفرديّ/ الجماعيّ، الداخل/ الخارج، الرسميّ/ غير الرسميّ. فأنماط التعبير عن الهامشية تتجاور في الواقع، مع أشكال تعبيريّة أخرى «مقبولة» اجتماعيًّا وسياسيًّا وثقافيًّا باعتبار أنّ طبيعة الحياة المعاصرة تقوم على هذا التوليف بين عناصر قد لا تعكس الائتلاف والانسجام بقدر ما تشير إلى مقدارٍ من التفاعل الديناميكي.

قائمة المصادر

المدونات المعتمدة

مدونة فاطمة أرابيكا http://fatmaarabicca.blogspot.com/search?updated

مدونة clandestin http://el-clandestin1.blogspot.com

مدونة النصر دائمًا، http://existe2007.maktoobblog.com/

مدونة ابتسامة من الجنوب، http://elebtissama.blogspot.com/2009_06_01_archive

مدوّنة «هشهوش النبّار» = http://hshoosh.blogspot.com/search?updated-min

مدوّنة «فري راس، http://free-race.blogspot.com

مدونة بنت عايلة http://bent-3ayla.blogspot.com/

مدونة هشهوش النبار -http://hshoosh.blogspot.com/search?updated

مدوّنة «بأجنحة ماغون» -http://magonide12.blogspot.com/2010/01/blog-post.html

قائمة المراجع

ـ هلال، عليّ الدين، ثقافة الشباب العربي والهوية في عصر العولمة، ط1، الإسكندرية، نشر مكتبة الإسكندرية، 2010.

ـ دون ذكر المؤلف، تحدّي الصحافة التقليدية، موقع شبكة الصحافة العربية، بتاريخ 12 ماي 2008 www.arabpressnetwork.org .

ـ اليان مي «بنيّة تونسية» تحصد جائزة الـ"بوبز» لأفضل مدونة عالمية، موقع شبكة الصحفيين الدوليين، بتاريخ 18-4-2011، http://ijnet.org/ar/stories/92944

ـ خارطة السجون بتونس،موقع نواة، متاح بتاريخ 27-9-2011،

http://nawaat.org/tunisianprisonersmap/

ـ الحمروني محمّد، المعركة من أجل حرية الإعلام في العالم الافتراضي، موقع إسلام أون لاين، بتاريخ 13-2-2011-

www.islamonline.net

ـ وجدي الطرابلسي، مؤسس أول مجموعة لموسيقى الراب في تونس، مدونة تونس اليوم، بتاريخ 15 نوفمبر/تشرين الثاني 2008، http:// touniselyoum.maktoobblog.com/1447230-

ـ بلطي يغني آلام الشباب التونسي ويصطدم النظام،موقع الحوار نت، مقال بتاريخ : - 07 -1- بمقاومة 2011

http://www.alhiwar.net/ShowNews.php?Tnd = 13049

-قرامي آمال، بئس الراب إن تحوّل إلى مديح للكراهية، موقع شفاف الشرق الأوسط .

موقع شفاف الشرق الأوسط، بتاريخ الاثنين 22 تشرين الثاني (نوفمبر) 2010.

http://www.metransparent.com/